

شخصية الأمة العربية

قوامها وعناصرها

بقلم محمد خلف الله أحمد

إذا كان للفرد كيانه الذاتي الذي يؤلف شخصيته ويميزها ، والذي يقوم على شعوره بنفسه وإرادته ، وخصائص نظامه العقلي وأسلوب سلوكه في الحياة ، فإن للأمة كذلك شخصيتها التي تتألف من إدراكها المشترك ، وخصائصها الفكرية والاجتماعية والاخلاقية . ومن تراثها الأدبي والفني والفلسفي والعلمي ، ومعالم تاريخها وأيامها وبطولاتها ، والدور الذي قامت وتقوم به في تقدم الإنسانية ورفقها .

وإذا كان المتكلمون بالعربية اليوم يؤلفون مجموعة بشرية كبيرة ، تشغل رقعة فسيحة من الأرض في قارتي آسيا وإفريقية ، وتنقسم إلى أقوام وأوطان متجاورة لكن منها شخصيته التي صنعها أهله وبيئته وتاريخه ، فانهم جميعاً يأتلفون في شخصية أوسع وأشمل ، لها وجودها وذاتيتها ، هي شخصية العالم العربي أو الأمة العربية الكبرى . وسنحاول في هذا البحث أن نرسم الخطوط الرئيسية لهذه الشخصية المتكاملة ، التي هي أساس فلسفة القومية العربية في تفكيرنا المعاصر ، فنبرز قوامها وأهم عناصرها وخصائصها وتتبع الأطوار الرئيسية لنموها ، والمكان الذي شغلته قديماً ، في عصورها الزاهرة ، وبجاهد أن تشغل مثله الآن ، في حياة الجماعة الإنسانية :

١ - ان أقدم ما يظلمنا من معالم شخصية هذه المنطقة التي نعرف الآن بالعالم العربي - سبقها في مضمار التطور الحضاري : ففي وديانها وسهولها ، وعلى ضفاف أنهارها وشواطئ بحارها قامت الحضارات الآشورية والبابلية والكلدانية والآرامية والفينيقية والمصرية وغيرها . ومن آثار

عقرياتها امتدت الانسانية كثيراً من مقومات حضارتها العامة (١) :
كالكتابة وأدوات الزراعة والحرب وهندسة البناء ونظم التشريع . وهذا السبق
موضع اتفاق بين الباحثين ، فكلهم يبدأ درس تاريخ المدينة محاضرات
الشرق القديم . ومن حق كل مواطن نشأ على أديم هذه المنطقة أن يعتر
بهذا السبق الحضارى ، وأن يستمد منه شعوراً بكرم النجار وعراقة المنبت .
وهو ليس مجرد إرث قديم عفا ودرس ، ولكنه آية من آيات النضج العقلى
والتطور الفكرى ، الذى وجدت بدوره منذ القدم فى هذه المنطقة أرضاً
خصبة صالحة ، والذى آتى أكله بعد ذلك طيباً مباركاً فى المرحلة الاسلامية العربية .

٢ - والعنصر الثانى القديم المميز لتاريخ هذه المنطقة أن صحاريها
ورباها وجبالها كانت مهلاً للديانات السماوية الكبرى ، التى دان ويدين بها
شطر كبير من سكان العالم ، التى قامت ومستظل تقوم بالدور الأكبر
فى توجيه بنى الانسان نحو المثل الرفيعة والحياة القاضلة . وتتضح لنا قيمة
هذا العنصر فى تراث الشرق القديم اذا تذكرنا ما تقوم به الانسانية الآن
من جهاد شاق فى سبيل تقرير المبادئ والمثل التى تحد من أطماع البشر ،
ومن عدوان بعضهم على بعض ، واستخدام عقرياتهم ومواهبهم فى إغناء
بعضهم بعضاً . ومن الواضح ان الانسانية لو رجعت الى ما قررتة ووجهت
اليه تعاليم الديانات السماوية واحدة بعد أخرى لعاش بنو الانسان فى ظل أمن
وارف وخير شامل .

هذا العنصر السهاوى فى تراث منطقة الحضارات يطبع شخصيتها بطابع
روحى ، ويمد تقاليدنا الأخلاقية والاجتماعية بميزان يحفظها من أن تميل
هنا أو هناك مع النزعات الوافدة والمذاهب المحلوبة ، ويخلق فى نفوس
أهلها احساساً بالاستعلاء الروحى المحمود الذى ينفر من التبعية فى مختلف أوضاعها .

(١) راسع (١) " شجرة الحضارة " تأليف رالف فنون . ترجمة أحمد فخرى -

ج ٢ - تفصول ٢٠ - ٢٢ [القاهرة ١٩٥٨] .

(ب) انصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) تأليف ج . هـ . برسد .

ترجمة أحمد فخرى . الفصل الأول . [القاهرة ١٩٥٥] .

٣ - ولكن شخصية هذه المنطقة تدخل - منذ القرن السابع الميلادي - في دور جديد من النمو والتفتح والتكامل ، اذ يطلع عليها من شبه الجزيرة العربية نور يضيء لها معالم الطريق ، ويكشف لها عن آفاق واسعة من الككالات الانسانية ، ويبينها لأن تكون مركز إشعاع حضارى جديد ، يأخذ مكانه اللائق به في تطور الحضارة الانسانية العامة : ففي ذلك القرن صدع الرسول العربي محمد بن عبد الله برسائله ، التي أكدت أنها مصدقة لما بين يديها من الرسائل ، وأنها انما تدعو الناس جميعاً الى كلمة سواء ، هي عبادة الله وحده لا شريك له ، والتصديق بكتبه ورسله ، وبناء الملوك الانساني على أسس من الفضيلة والعدالة والاخاء والتعاون ، واقامة الميزان بين الروحانية والمادية في الحياة الانسانية ، وتوجيه العقل البشري الى كشف أسرار الوجود ، ونسخير موارده وخبراته فيما يعود على الناس جميعاً بالسعادة والرخاء .

هذا المؤثر الحضارى الجديد ، الذي حمل معه صفاء الصحراء العربية وبيائها ولغتها ، وفتوتها ومروعها وحماسها ، لم يثبت أن وجد من منطقة الحضارات القديمة في جنوب آسيا الغربي وعلى شواطئ البحر الأبيض الشرقية والجنوبية بيئته الحصبة المواتية ، التي هيأها التاريخ ، والمجرات والصلات اللغوية والثقافية والتجارية منذ القديم لأن تؤلف تحت ظلال الاسلام وحدة انسانية سمجة متماسكة ، ذات لغة واحدة ، وثقافة مشتركة ، ومثل وعادات وتقاليد متجانسة . وبذلك تمكنت قبل مضي وقت طويل من أن تنشئ عصرأ حضاريا ذهبيا (١) ، وأن تقيم في ربوعها مراكز للمعارف الانسانية ، لا تزال وستظل - باذن الله - حية مزدهرة ، واستطاعت أن ترسل أضواءها الروحية والثقافية والسياسية الى معظم أرجاء العالم القديم ، وأن تشغل طوال مرحلة كبيرة من الزمان مركز العلم والثقافة للكثير من الأمم والشعوب .

(١) راجع "الاسلام والحضارة" . م . خلف الله . [وزارة الارشاد القومي .
مخدرات الاذاعة . القاهرة ١٩٥٧] .

هذه الحضارة الاسلامية العربية ، التي خفقت راياتها فوق قارتي آسيا
 وافريقية وأجزاء من جنوب أوروبا ، والتي كان العالم العربي قلبها النابض
 بالحركة والحياة والقوة الدافعة ، انشأت الشخصية العربية انشاءً جديداً ،
 بما زاوجت بين الثقافات والاجناس ، وأشاعت من مظاهر التسامح والتعاون (١)
 وبها حملت معها من عوامل روحية وثقافية عميقة الأثر في حياة الفرد والجماعة :
 فقد اعطت القاعدة الاسلامية المركزية - وهي التي عرفت بالعالم العربي -
 لغتها الموحدة التي كان عرب شبه الجزيرة قد صقلوها في مواسمهم وأسواقهم
 وخطبهم في فقه المنضل وهو البيان . ثم جاء القرآن -- وهو الكتاب السماوي
 المبين - فأكمل هذه اللغة عبقريتها في التعبير ، ودفع علماءها في القرنين
 الثاني والثالث الهجريين الى أن يقوموا بحركتهم الأكاديمية البارعة في تقييدها
 وارساء قواعدها التركيبية والنقدية (٢) . وهذا استجاب تلك اللغة لمطالب
 الحضارة الاسلامية الواسعة في نهضتها العقلية ، فأصبحت لغة العلم والفلسفة
 والكتابة والتأليف ، من مشارف المحيط الأطلسي الى أواسط آسيا وجنوبها .
 وفتحت تلك اللغة أبوابها واسعة لاستقبال الثقافات القديمة المترجمة - من يونانية
 ولاتينية وفارسية وهندية وسريانية وغيرها ، ثم درسها ونقلتها وأضاف
 إليها وأبرزتها من جديد في قالب ثقافة اسلامية عربية ، ميسرة لطلاب
 المعرفة على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم .

وكما اعترف العالم الحديث بحضارتنا الأولى ، وبما كان لها من سبق
 في العالم القديم ، اعترف بحضارتنا الاسلامية العربية وفتوحها وكشوفها
 في مختلف ميادين المعرفة ، وبما كان لها من آثار في عصر الاحياء وفي تطور
 آداب الغرب وتفكيره الفلسي والعلمي (٣) .

(١) راجع (١) " Glories of salam " نور أحمد . الباكستان لاهور ١٩٥٨ .

(٢) راجع [Early Stages in the Development and Standardisation of Arabic
 Literary Language] م . خف الله . المجلد الحادي عشر من مجلة كلية الآداب بالاسكندرية

سنة ١٩٥٥

(٣) راجع The Legacy of Islam . توماس اربولد وآخرون [لندن . الطبعة الأولى

[١٩٣١]

ومما له دلالة أن بعض الغربيين المحدثين قد ساهموا في دراسة حضارتنا هذه وإبراز طابعها وبيان آثار علمائنا في ميادين الطب والرياضة والفلك والكيمياء والفلسفة والاجتماع وعلوم البحار .. وقد ازدادت الآن - لأسباب كثيرة - عناية الغربيين بدراسة هذه الحضارة ، وتعرف آثارها العميقة في حياة العرب وسائر المسلمين المعاصرين ، وأخذت المؤسسات العلمية في الدول الكبرى ينافس بعضها بعضا في انشاء معاهد الدراسات الاسلامية والشرقية ، وفي نشر كتبنا القديمة وترجمتها الى لغاتهم ، وفي عقد المؤتمرات لبحث نواحي الثقافة الاسلامية العربية ورصد تياراتها وحركاتها المعاصرة بل أخذت المذاهب الحاضرة المتصارعة في غرب وشرق تحاول أن تتلمس نواحي من القرب والاتصال بين تعاليمها وتعاليم حضارتنا .

ومن الواضح أن هذه الحضارة التي أنشأت علمنا العربي الأوسع ، وطبعت شخصيتنا بطابعها ، جديرة منا نحن العرب بالعناية الكبرى في مناهج مدارسنا وجامعاتنا . حتى يعرف شعبنا حضارته وتاريخه فيعرف مكانه ويعرف نفسه . ومن حق هذه الحضارة على كل مواطن عربي أن كانت بيئته وعقيدته أن يعرف ذخائرها وعلماءها وان يقين روافدها التي اضافت قوة واتساعا الى نهر الحضارة الانسانية الدائب الجريان منذ القدم .

ومن أكرم ما يلزم لشبابنا على اختلاف ميادينهم الثقافية أن يعرفوا آثار أسلافهم : كإبن الهيثم والرازي وابن سينا ، وجابر ، وثابت بن قررة ، وابن البيطار ، وابن النفيس ، وابن رشد ، والحليل . وأبي العلاء ، والغزالي ، والمسعودي ، وابن خلدون وغيرهم ، وان يلموا بما تركت اللغة العربية من آثار في مصطلحات العلوم في المغرب ، وبما أفاد المغرب من تقدم العرب في العلاج والمستشفيات ، وصناعة الورق ، والخرائط الجغرافية ، ودراسة المعادن ، وفنون الحرب والأسلحة وغيرها ، وأن يطنعوا على ما كتب الغربيون عن تراث الاسلام وحضارة العرب ، وعلى ما قام به الباحثون في البلاد الاسلامية المعاصرة من دراسات لهذا التراث وأبعاده .

هذه الوقفة التي وقضناها عند الحضارة العربية الاسلامية ، فصدنا منها أن نتبين كيف نمت وتفتحت وتكاملت شخصية العالم العربي ، الذي كان

من حظه أن حمل لواء هذه الحضارة ، فترك عليها طابعه ، وخلعت هي عليه طابعها ، فأصبح الحديث عن الحضارة العربية أو الإسلامية في جوهره حديثاً عن تراث هذه المنطقة ، والمناطق التي اتصلت بها روحياً وثقافياً ، واصطنعت لغتها في الكتابة والتأليف .

وإذا أردنا أن نبرز الطابع الرئيسي للشخصية العربية في تاريخها الإسلامي وجدنا الركن الأول فيه وحدة اللغة - وتلك ظاهرة عميقة الأثر في حياة الإنسانية ، فلغة أي مجتمع صغر أو كبر . هي ترجمان عواطفه ومشاعره وأفكاره ورغائبه وأهدافه ، وتنبئ تاريخه وتراثه وأدبه ، والحيل الذي يصل حاضره بماضيه ، وطريقه ببلاده . والاشترك فيها هو الأساس الأول للتعاطف والتعاون والشعور بالمواطنة والقومية (١) . وهذا الركن في ذاته مصدر اعتزازنا بأنفسنا وتاريخنا : فلغتنا من أغنى اللغات الكبرى تراثاً ، وأطولها عمراً ، وأبقاها على الزمن اتصالاً . وقد وسعت ما وصل إليها من معارف الأقدمين في الماضي ، وهي الآن تثبت قدرتها على الاتساع لتجار الفكر الإنساني الحديث ، بل إنها تشارك باننتاجها في تنمية التروة الأدبية والعقلية لعالم المعاصر .

والركن الثاني من أركان الشخصية العربية وعيها السياسي والإنساني الميكر : فقد شهد المجتمع العربي الإسلامي أول وأقدم تجربة عملية ناجحة في تقرير حقوق الإنسان (٢) . وقد يبدو هذا القول مستغرباً عند النظرة الأولى : «فحقوق الإنسان» تعبير لم يشع استعماله إلا في العصر الحديث نتيجة للثورات وانتشار الروح الديمقراطية وتقدم التفكير السياسي والاجتماعي ، وهو يدل على مجموعة انبواحي التي لا يزال المجتمع اللغوي الحديث يجاهد في سبيل توفيرها لكل فرد ولكل شعب ، حتى تتحقق له ذاته كاملة ، وحتى

(١) راجع : «محاضرات في نشوء الفكرة القومية» . مطبع المصري [ط ٢] . بيروت ١٩٥٩ . الخاضرة الأولى .

(٢) راجع : «موقف الحضارة الإسلامية من حقوق الإنسان» . محمد حنيف الله . [بحث لشرته مجلة المصرية لقانون الدول المجلد الثاني عشر ج ٢ . ١٩٥٦] .

تنبأ له الشرائط الأساسية لحياة لائقة بالإنسان وبالجماعة الإنسانية . ولكن الغرابة لا تلبث أن تزول اذا تذكرنا ان الاسلام منذ نشأته قام في صورة رسالة خالدة للإنسانية عامة : غنيا وفقيرها ، وأيضا وأسودها ، ومشرقتها ومغربها ، وكان لب هذه الرسالة تحرير الانسان من الخضوع لغير الله في عقيدته وتفكيره وشخصيته ومعيشته ، وتوجيه الاهتمام الى جوهر الإنسانية من روح وعقل وخلق وعلم ، والتهوين من شأن الفوارق المادية التي لا تتصل بذلك الجوهر اتصالا وثيقا . ولم يحىء تقرير هذه المبادئ في صورة وثيقة منفصلة محدودة بزمانها ومكانها وظروف الاجتماع المحلية المحيطة بها ، ولكنها جاءت ركنا من أركان عقيدة شاملة توضح العلاقة بين الانسان وخالقه ، وبين أفراد البشر بعضهم وبعض ، في اجتماعهم ومعاملتهم وسياساتهم . وهكذا احزرت نصيبا من قداسة العقيدة التي هي ركن منها ، ومن خلود الشريعة التي هي جزء من لها وجوهرها . وقد صحت تقريرها منذ البداية عامل التطبيق الصحيح على يد الرسول وخلفائه وقوادهم وعالمهم على الأقاليم .

فن المعروف المقرر أن الحضارة الإسلامية منذ نشأتها كفلت حرية العقيدة والتفكير والمعرفة لجميع مواطنيها مسلمين وغير مسلمين : فوفرت للمسلم حريته في تفكيره الديني وفي طريقة فهمه للدين وشرائعه وأسماره ، دون أن يحون بينه وبين تلك الحرية نسلط من فرد أو جماعة ودون أن يصيبه من وراء آرائه الدينية ضرر في نفسه أو ماله أو عمله ، وضمنت لغير المسلم الذي يعيش في دار الاسلام - حريته في أن يلجأ حياته الدينية الخاصة ويتعبد على طريقة دينه ، وينظم شئون معيشته وفقا لمقتضيات ذلك الدين ، دون أن يتعرض لمضايقة أو اضطهاد أو أن يضار في نفسه أو ماله أو عمله من جراء مخالفة في الدين لغالية المجتمع من حواله . (١)

(١) راجع : " موقف الاسلام من حرية العقيدة والتفكير " . محمد خلف الله [بحث أتى في الدورة الإسلامية الدولية - باكستان ٥ لاهور ١٩٥٧/١٩٥٨ ونشر في كتاب أعيان الدعوة] .

وهذه الناحية قد درسها بعض الباحثين الغربيين من مختلف نواحيها دراسة متسفة بالانصاف ، وقرروا أن التسامح الديني كان أساساً كبيراً من أسس الحياة في طول البلاد الاسلامية وعرضها ، وأن الحاجة الى المعيشة المشتركة وما يفرض أن يكون فيها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعاً من التسامح بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى المواطنين لهم ، مما كان مظهره نشوء علم مقارنة الأديان : أي دراسة الملل والتحلل على اختلافها والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم (١) . وقد كفل المجتمع الاسلامي حرية التبادل الثقافي وحض عليها ، فاقبل الناس من مختلف الأجناس على تعلم اللغة العربية واحرز بعض غير العرب فيها شهرة ونبوغاً ، وتخصص كثير من المواطنين على اختلاف السنتهم وعقائدهم في ترجمة التراث القديم الى اللغة العربية . وقام فلاسفة الفكر الاسلامي بمجهود جبار في التوفيق بين مقررات العقيدة الدينية والتفكير العقلي الفلسفي ، وبذلك اتسعت الحضارة العربية الاسلامية لمختلف الاتجاهات والمذاهب ، وراجت فيها أسواق المعرفة ، وازدهرت الفلسفة والعلم مجرداً وتجريبياً ، ولم يعرف تاريخها قضية بين الدين والعلم استعصت طويلاً على التفاهم والمصالحة .

كذلك كان مما عنيت به حضارة الاسلام عناية خاصة اقامة الأركان الضرورية لبناء الحياة الديمقراطية الصحيحة : من عدل في القضاء ، وشورى في الأمر وثيقة بين الحاكم والمحكوم ، وتكافؤ في التمرس ، وتكافل بين طبقات الأمة ، وتعاطف بين أغنيائها وفقرائها . وقيام كل فرد فيها بمسئوليته عما يرعاه ، وما الى ذلك من الخصائص والنواحي التي أصبحنا نطلبها في الديمقراطيات الحديثة (٢) .

(١) راجع : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » تأليف آدم مثر . ترجمة م. أبو ريعة . [لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة . ١٩٤١ . ج ١ فصل ٤] .

(٢) هذه الشؤون مقررة أصولها في نصوص القرآن وسنة الرسول ، وهي تمثل مكاناً بارزاً في خطب الخلفاء الراشدين وعهودهم - ومنها في نهج البلاغة للإمام علي ثروة كبيرة . ويمكن الرجوع اليها في دراسات المنصفين من الغربيين وفي كتب العلماء المسلمين الذين تناولوا .

وكما أعطتنا حضارتنا وتاريخنا هذا الطابع الروحي والثقاف أعطتنا طابعا سلوكيا واجتماعيا : فقد اشتهر اسلافنا منذ القدم بالشجاعة والنجدة والكرم والفروسية واباء الضيم ورعى الدمار واغاثة الملهوف والمحافظة على العرض والشرف (١) . وهي صفات سبغتها آدابنا وتوارثتها تقاليدنا ، ثم جاء الاسلام برسائله الانسانية السامية ، فهذب هذه الصفات ، ووجهها وجهات جديدة في خدمة المجتمع الفاضل الذي انشأه ، ووضع امامها مثلا عاليا يجاهد في الوصول اليه : فنحولت الشجاعة والعصية والفروسية واباء الضيم الى قوة في العقيدة ، وصلابة في الحق ، واستشهاد في سبيل المبادئ والمثل ، وتضحية من أجل المجموع . وزياد عن الوطن ، ومحافظة على روابط الأسرة والجماعة ، وجهاد للنفس وحمل لما على ما تكره في سبيل تحقيق الخير العام .

وهكذا استقام لهذه المنطقة وحضارتها نموذج الاخلاق واجتماعي واضح : يستند الى أساس من العقيدة . وينجد الى تحقيق الكفالات الفردية والجماعية وينشد الإصلاح والسعادة في الحياتين العاجلة والآجلة .

٤ - هذه العوامل والخصائص من تاريخية واقليمية وحضارية وروحية تعاونت على أن تجعل من الأمة العربية أمة وسطا بين الناس : فهي وسط في رقعتها المكانية بين الشرق والغرب ، تمر بها التجارة غادية وانحة ، وتمبرها وسائل النقل والمواصلات على اختلاف أنواعها ، وهي وسط في جوها المعتدل ، بين حرارة المناطق الاستوائية ، وبرودة المناطق الشمالية ، وطبيعة أرضها وسط ، تجمع بين السهل والجبل ، والماء واليابس ، واثابية والحاضرة . ويغل سطحها كثيراً من الجبرات ، كما يضم جوفها فيضا

== السيادة الشرعية بالإيضاح والتجليل : كالمؤرخ والفيلسوف ، وابن نيمية والسيد أمير عل ، والشيخ محمد عبده . ومن هذه القرائح ما تناوله الباحثون في المؤتمرات العالمية للحيفة لثقافة الإسلامية كل عام برنستون بأمریکا في خريف سنة ١٩٥٣ ، ومؤتمر لأمور باكستان في أوائل سنة ١٩٥٨

(١) راجع " الفتوة عند العرب " عمر اندسوق [مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة

. [١٩٥١] .

من مصادر الثروة والرخاء . ثم هي وسط في حضارتها بين القديم والجديد :
فلقتها - على قدمها النسبي وطول تاريخها - متصلة الحياة ، قابلة للتطور
والتجدد ، وأدبها يجمع بين اصالة الفن القديم ، وغصب الفنون الحديثة ،
وثقافتها تتصل بسبب من الثقافات السابقة ، وتسامم بنصيب في رقي الثقافة
المعاصرة . وهي في عالم الأديان مكان القبلة والوسط ، تتجه الى أماكنها
المقدسة مئات الملايين من المؤمنين في حجهم وصلواتهم .

والعلماء متنبهون الى أن ثبوت صفة الوسط لأمة من الأمم ، في كثير
من النواحي المشار إليها ، ليس في حد ذاته مزية أو فضيلة ضرورية ، وليس
شرطا جوهريا في رقي الأمة أو نهاة شأنها ؛ وحتى ان كان مزية ، فهو
لا يفتنى عن الأمة من العمل والكفاح والاستعداد شيئا . ولكن موضع الفضل
فيه هو ارتباطه بالخصائص النفسية والاجتماعية للأمة ، وبالطابع الذي تتسم
به حياتها ومكانها بين الأمم .

وليس هناك من شك ، في أن العرب في تاريخهم الطويل ، يمثلون
نماذج من الأخلاق الفردية والاجتماعية ، سجلتها آدابهم وآثارهم ، وشهدت
التجارب الانسانية بصلاحها واعتدالها وحسن أثرها في سير الحياة ؛ فهم
من ناحية يمثلون أخلاق القوة كما أشرنا : من شجاعة وباء وإقدام وقوة ،
ومن ناحية أخرى يمثلون الكرم والايثار وحماية الضعيف ، ونصرة المظلوم ،
كما يمثلون في مشاعرهم ووجداناتهم رقة الحس ودقة الشعور . وهم رغم
ما عرفوا به في بداوتهم من ثارات وحروب - لم يكونوا في تاريخهم
الحضارى أمة عدوان واستعمار ، أو تخريب وتدمير . ولكنهم في انتشارهم
في الأرض وفي ملكهم الواسع الذي أسود ، وحضارتهم التي أقاموها ،
كانوا حملة رسالة ودعاة اصلاح ، وكان دورهم الرئيسي دور المرشد والموجه
الى حياة أفضل وأكمل . لذلك أخذت حضارتهم طابعا انسانيا وثقافيا
واضحاً ، فازدهرت فيها العاوم والمعارف ، وسادت مبادئ الاخاء والمساواة
واستطاع كل مواطن في عالم العروبة الاسلامية ، أن يستنمير مواهبه في خدمة
النسوة وصلاح المجموع ، وأن يرقى الى ما تؤهله له كفايته من منصب
أو وظيفة .

هذا الموقف الوسط ، الجامع بين الشخصية القومية المتكاملة ، والارادة الحرة الحرة ، حفظ العرب كيانهم وذاتيتهم ازاء الامبراطوريات التي جاورتهم في انقديم ، وحاولت انتقاصهم من اطرافهم . وقد حفظت لنا كتب الأدب ألواناً طريفة كبيرة الدلالة ، من المناظرات الحقيقية أو التخيلية ، بين وفود العرب وأصحاب التيجان من الأمم المجاورة . وكلها تعبر عما كان يتحلى به العرب من العزة والألفة وقوة العارضة وسداد الرأي ، والاعتداد بمخصاتهم بين الأمم .

ومن أبرز النواحي التي يظهر فيها توسط الأمة العربية في تاريخها الاسلامي ، وعدم ميلها الى أطراف الأمور ، فلسفتها في الحياة ، وموقفها من العقائد ومن الأجناس الأخرى . وهذه نواح كان للتوجيه الديني فيها كبير الأثر : فقد اختار الله للرسالة التي اضطلمت بها هذه الأمة أن تقوم دعوتها على أساس الوحدة الشاملة ، والمساواة أمام الخالق في الكرامة الانسانية ، فلا يفضل عربي عجمياً ولا أبيض أسود ، ولا غني فقيراً ، الا بقدر نصيب كل منهم من التقوى وحب الخير والعمل له . ومن هنا شهد العالم للمرة الأولى في تاريخه مجتمعاً انسانياً راقياً تقوم حياته على التعاضد السامح ، بين جميع أفرادها وجماعاته ، وبشرك مواطنوه في خدمته وترقيته والدفاع عنه ، وانتمتع بحيراته والاعتراز بأجماده ، دون أن يحول بينهم وبين شيء من ذلك اختلاف نسب أو دين ، أو لون بشرية ، أو انتماء الى عنصر من العناصر . وعرف ذلك المجتمع كيف يحل مشكلة الفقر والغنى ، والعمل ورأس المال ، على أساس من التعاون والتكافل ، والعناية بالأنظمة والمنشآت العامة ، التي تضمن قدراً من الحياة الكريمة للفقراء والمساكين والمعجزة والمرضى ومن اليهم ، دون تقييد في هذا باعتبارات عنصرية أو طائفية أو غيرها . ثم عرف كيف يوفق في فلسفته في الحياة ، بين مطالب الروح ومقتضيات المادة ، وكلاهما عنصر في التكوين الانساني : فلم تترخ الأمة العربية يوماً مائلى المنادية الجماعية الخالية من الروح . ولم تمل كل الميل الى الروحية المسرفة ، المؤدية الى الانعزال والفناء ، بل أخذت حفظها من العمل وعماراة الكون . واتتمت بزينة الحياة وطيبتها التي أحلها الله ، وجاهدت في سبيل

التطور والسمو الروحي ، والترؤد للحياة الآخرة ، جهاداً تفاوتت درجاته ومراتبه حسب استعدادات الناس وطبائعهم وظروف حياتهم ، فكان فهم الصالحون والعباد والزهاد ، وكان فهم المتصوفة الذين لم يمنعمهم تصوفهم من أن يشاركوا في الحياة العامة ، وفي تطوير الحركة الفكرية . هذا التوسط في فلسفة الحياة الإنسانية ، وعدم اهمال عناصر الفطرة أو احتقارها ، مزية لما شأنها في الشخصية العربية ، وفي الأنظمة الأخلاقية والاجتماعية ، التي سادت ولا تزال تسود حياة العرب في مختلف بيئاتهم . ومن الواضح أن ما تدعو إليه الآن الجمهورية العربية المتحدة ، من سياسة الحياد الإيجابي والتعايش السلمي ، أثر من آثار تلك الخصائص الموروثة ، التي جعلت العرب أمة وسطاً في الناس ، وكرهت اليهم الانحياز والتبعية والغلو في النزعات والمذاهب وجعلتهم أميل إلى السلام والائخاء والتسامح ونكران الذات ، والايثار ، وعدم المبادرة إلى الاساءة ، إلا حين يفسرح الشر وتنتهك الحرمات ويعتدى على مقدسات الأوطان وكراماتها ، فهناك ينتفضي العربي سيفه وعزيمته ، ويقتحم الغمرات ، مستيئناً بثبوت ، عامما النصر وامة الشهادة . وبرهن العرب في تاريخهم وفي حروبهم على أنهم أمة تعرف كيف تكبح جماح نشوتها في ساعة الظفر ، وكيف تعامل أعداءها المهزومين معاملة تطوى على مبادئ انبل والمروءة والعضو عند المنقورة .

د - هذا القوام وهذه العناصر والعوامل هي التي كونت شخصيتنا العربية الاسلامية . وهذه الصفات والسمات امتطاع العرب حين انتشروا وسادوا أن يعجبوا بسيادتهم خيراً وبركة على الناس ، وعرفوا كيف يلدودون عن أوطانهم ، ويسجنون لأنفسهم في العصور الذهبية من تاريخهم أعمالاً وبطولات خالدة ، وكيف يحفظون شخصيتهم من أن تتحل أو تتفكك في مرحلة الضعف والجهود التي شملت الشرق فترة من الزمن ، ومن أن تضعف أو تنفد شعورها بذاتها في عصر الاستعمار الغربي الذي حاول بشئ وسائله أن يزعزع ثقة العرب بأنفسهم ، وأن يحاربهم باضعاف تراثهم وخصائصهم .

وهكذا سار تاريخ منطقة الشرق العربي سيره الذي وصفنا من مرحلة الحضارات القديمة التي دفعت بالانسانية دفعة قوية الى الامام ، الى مرحلة الحضارة الاسلامية العربية الكبرى التي وصلت قديم الانسان بجديده ، ونفخت في تراثه الفكري والفلسفي روحا من العقيدة والايمان والتسامح واحترام كرامة الانسان ، وسارت بالبشرية خطوات كبيرة في سبيل التحرر العقلي ، ومهدت السبيل لنهضة العلم الحديث . ثم انتقل تاريخ الشرق العربي - بعد فترة ضعف وخمود - الى حركة قوية في اواخر القرن التاسع عشر واولائل العشرين في سبيل ابراز الكيان العربي ، والى كفاح مجيد في النصف الاول من القرن الحاضر في سبيل تحرير الأوطان العربية من رق الاستعمار ، ثم الى جهاد انجاني مشترك (١) في سبيل تجديد الشخصية العربية وجلاء طابعها ، ودعم شعورها بقوميتها ، وتحقيق التكامل الشامل الشامل بين اعضائها ، وتثبيتها لأن تقوم بدورها من جديد في اسعاد الانسانية وأمنها ورخائها وتقدمها نحو الكمال المنشود .

(١) راجع . العالم العربي . نجلاء عز الدين . ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرين .
[دار اسمايا الكتب العربي - القاهرة ١٩٥٧] الفصل السادس عشر .